امتداد دوامة الصمت في الفضاء الرقمي

أيوب لوقيد
د. عبد اللطيف بن صفية
المعهد العالي للإعلام والاتصال
المغرب

الملخص

تتوقف هذه الورقة عند سؤال استمرار دوامة الصمت لإليزابيث نويل-نيومان في سياق إعلام رقمي متجدد باستمرار، قائم على الاستثمار في الذكاء الاصطناعي، والإشراف القبلي على المحتوى وتدفق الرسائل وتكييفها عن طريق الخوارزميات لإشباع انتظارات المستخدم.

وبالنظر لمقاربة نويل-نيومان نظرية دوامة الصمت في بيئات غير متصلة بشبكة الانترنيت، يسعى البحث لإبراز مدى انخراط الفضاء الرقمي في إرساء رأي عام زائف، داعم لدوامة الصمت، مع التساؤل حول جدوى "الخوف من العزلة" كمحفز لهذه الدوامة، بالنظر لما تمنحه البيئات الرقمية من مساحة تعبير حرة، تتجاوز الأجندة والتأطير المفروض من قبل الإعلام التقليدي.

Abstract

This paper examines the persistence of Elizabeth Noelle-Neumann's spiral of silence in the context of a constantly evolving digital media landscape, which is driven by investment in artificial intelligence, preemptive content and messaging moderation, as well as algorithmic adaptation to satisfy user expectations.

Given Noelle-Neumann's theoretical approach to the spiral of silence in offline environments, this research seeks to highlight the extent to which the digital space is involved in creating a climate conducive to the spiral of silence, questioning the validity of « fear of isolation » as a catalyst for this spiral, considering the freedom of expression afforded by digital environments, which transcend the agenda-setting imposed by traditional media.

الكلمات المفتاحية: دوامة الصمت، شبكات التواصل الاجتماعي، الذكاء الاصطناعي، التواصل الرقمي

مقدمة

تعود نظرية دوامة الصمت لفترة ما قبل دمقرطة وسائل الإعلام، حيث انصبت دراسات إليزابيث نويل-نيومان على تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية، خاصة التلفزيون، على الرأي العام ومدى قابلية الأفراد التعبير عن آراء مخالفة للخطاب المنصوص عليه في الأنجدة الإعلامية.

تشدد نويل-نيومان في نظريتها على ثلاثة مرتكزات تدعم قوة وسائل الإعلام في الحشد والتأثير، ويتعلق الأمر بالشيوع والانتشار، التراكم والاتساق، وهي عناصر قوضتها المنصات الرقمية، بوصفها بيئة حاضنة لمختلف التيارات الفكرية، مشجعة على إنشاء المحتوى والمشاركة.

إن الديناميات الجديدة للتواصل الرقمي تفرض إدراك جملة من الخصوصيات كقدرة الفرد على إخفاء هويته، أو التحاقه بمجموعات أو منتديات مغلقة تتناول قضايا إشكالية من منظور ينسجم مع قناعاته، وبالتالي يغدو الإحساس بالضغط المجتمعي، بسبب نظرة الغير، أقل وطأة.

تكمن أهمية هذا المقال في تناوله للديناميات المحفزة للاستمرار دوامة الصمت في الأوساط الرقمية، بالوقوف عند تأثير الحسابات الآلية (Social bots)، كما الخوارزميات (Algorithms) على تصور الأفراد لماهية الرأي العام، وتبعات فقاعات التصفية (filter bubble) وغرف الصدى (Echo Chambers)، لذا ينطلق هذا المقال من مجموعة من الأسئلة:

- كيف تغذي البيئات الرقمية دوامة الصمت؟
- هل يمكن الحديث عن "الخوف من العزلة" كدافع للصمت داخل بيئة رقمية؟

ينقسم هذا المقال إلى محورين رئيسين: الأول يعنى بالتأطير النظري لدوامة الصمت، من خلاله نستكشف مفهوم هذه النظرية وسياق بروزها وكذا أدوار ومكانة وسائل الإعلام في ديناميات هذه الدوامة، فيما المحور الثاني يركز على تمظهرات دوامة الصمت في ضوء ما تعرفه اليوم تكنولوجيا الإعلام والتواصل من تطور.

المبحث الأول: دوامة الصمت: تأثير وسائل الإعلام وتشكيل الرأي العام

تشير دوامة الصمت إلى الحلقة المفرغة التي يخضع لها الأفراد أو الجماعات بامتناعهم عن الإبداء عن آرائهم على نحو صريح، وعادة ما يكون هذا الاختيار مدفوعا بالحس شبه الإحصائي الذي يتمتع به الأفراد لإدراك التوجهات العامة والقضايا التي تحظى بالإجماع والقبول، وبدافع الخوف من العزلة والنبذ المجتمعي، تصبح الأصوات المعارضة أو الأقلية غير ممثلة وغير مسموعة.

لقد حظيت نظرية دوامة الصمت باهتمام واسع من قبل الباحثين في علوم الإعلام والاتصال، خاصة بعد الحربين العالمتين، وما أعقب تلك الفترة من تطور تكنولوجي لافت في الدعاية والإعلام، غير أن النظرية صيغت بالارتكاز على المنظور الاجتماعي الكلي، إذ انطلقت إليزابيث نويل–نيومان من أن الرأي العام هو ما نتصوره حكما من غرباء ضمن جمهور واسع مجهول الهوية[1]، وهو ما عارضه باحثون على اعتبار أن البيئات الضيقة بين الأفراد كالعائلة والأصدقاء تمارس ضغطا اجتماعيا أقوى، وبالتالي فإن مواقفها المعلنة هي المحدد لمدى قدرة الفرد على مشاركة رأيه أو الكتمان[2].

بالاطلاع على القراءات المختلفة في نظرية دوامة الصمت، نلمس حدودها في دراسة الرأي العام بشكل أدق، إذ تفترض نويل–نيومان أن الرأي العام كتلة ثابتة ذات تصورات ومواقف راسخة، مستبعدة بذلك الطابع المرن والمتغير للرأي العام وخصوصيات الأفراد وقدرتهم على كسر حاجز الصمت[3]، كما تغفل النظرية عن إمكانية امتناع الأفراد عن التعبير عن آرائهم رغم توافقها مع ما هو سائد، أو ميلهم أكثر للتعبير عنها رغم تعارضها مع المناخ العام، إلى جانب تقييد أسباب الصمت في الخوف من الإقصاء المجتمعي، دون الخوض في دوافع أخرى كالخجل، اللامبالاة أو الميل لتجنب إحراج الطرف الآخر المدافع عن الرأي النقيض[4].

المطلب الأول: بروز نظرية دوامة الصمت

شكلت "دوامة الصمت" لإليزابيث نويل–نيومان نظرية محورية ومرجعا مؤسسا للأبحاث حول الصمت في علوم الإعلام والاتصال، وتعود هذه النظرية لسبعينيات القرن الماضي، حيث أقرنت بدراسة تأثيرات وسائل الإعلام الجماهيرية، خاصة التلفزيون، على الرأي العام وتوجهاته في خضم الحملات الانتخابية.

برزت نظرية نويل–نيومان في سياق تحول تاريخي في بحوث الاتصال، تمثل أساسا في الانتقال من نظريات التأثيرات الإعلامية الضئيلة إلى نظريات تعترف بالتأثير القوي لوسائل الإعلام على الرأي العام. وقد أبرز عمل نويل–نيومان كيف أن لوسائل الإعلام سلطة تشكيل تصورات الجمهور وتغييب التمثيل الحقيقي لمكونات المجتمع، ما يدفع ببعض الأصوات لالتزام الصمت، وبالتالي التأثير على مدى إقبال الأفراد على التعبير عن آرائهم الخاصة.

اتخذت إليزابيث نويل–نيومان من انتخابات ألمانيا الغربية لسنة 1965 أرضية لتطوير نظريتها، من خلال تحليل سلوك الناخبين ونتائج الانتخابات التي وضعت تحالف الاتحاد المسيحي الديمقراطي والاتحاد الاجتماعي المسيحي (CDU/CSU) في مواجهة الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD)، وهي الانتخابات التي عرفت تقاربا كبيرا بين التيارين في نتائج استطلاعات الرأي على مدى أزيد من تسعة أشهر، غير أن نتائج هذه الاستطلاعات دخلت منعطفا مغايرا شهرا واحدا قبيل الانتخابات[5]، بترجيع المستطلَعين كفة تحالف الاتحاد المسيحي الديمقراطي والاتحاد الاجتماعي المسيحي على حساب الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD).

إن آليات وأساليب دراسة وفهم هيكل الرأي العام وتفسير أسباب تأرجحه ظلت متأخرة مقارنة بآليات القياس[6]، وبالتالي فقد استعصى على الباحثين تفسير نتائج انتخابات ألمانيا الغربية لسنة 1965، فكان لزاما الانتظار إلى غاية انتخابات 1972، والتي شهدت تكرار ذات السيناريو بتسجيل تقارب كبير في نتائج استطلاعات الرأي بين تحالف الاتحاد المسيحي الديمقراطي والاتحاد الاجتماعي المسيحي

(CDU/CSU) والحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD)، لتدخل نتائج الاستطلاعات منعطفا جديدا بترجيح فوز الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وهو ما آلت له نتائج الانتخابات.

من خلال هذه النتائج صاغت إليزابيث نويل-نيومان فرضية مؤداها أن مناخ الرأي العام رهين بمن يهمين في الحديث ومن يلتزم الصمت، حيث إن ما يؤثر حقيقة على نتائج الانتخابات هو حماس الجماهير لا أعدادها، فرغم تساوي نتائج استطلاعات الرأي بين تحالف الاتحاد المسيحي الديمقراطي والاتحاد الاجتماعي المسيحي والحزب الاشتراكي الديمقراطي، إلا أن الحضور القوي في الساحة الإعلامية والفضاء العام ساهم في استقطاب ناخبين مترددين وخلق تأثير العربة، وهو تأثير يحيل على ميل الناخبين والأفراد عموما على دعم المرشح الأوفر حظا للفوز أو المرشح الأكثر تفضيلا وتشجيعا من الناحية الجماهيرية[7]، فيندمج الفرد داخل النسيج المجتمعي قسرا، ويدعي تبني ذات المواقف والتوجهات المتداولة إعلاميا، وإن لم تكن على صواب، فوطأة الخوف من العزلة أكبر من وطأة تبني مواقف مجانبة للصواب[8].

بناءً على هذه الملاحظات، تفترض نويل-نيومان أن الفرد يكون مدفوعا بسببين للتكتم عن آرائه الخاصة: التعلم والخوف من العزلة والتعلم، الدافع الأول في نظرية نويل-نيومان يتقاطع مع تجربة Solomon Asch المختبرية الكلاسيكية، والتي تعود إلى خمسينيات القرن الماضي، من خلالها يفترض سولومون آش أن الأفراد يميلون للامتثال والخضوع لمحيطهم عند تعرضهم لضغط من قبل الأغلبية بسبب خوفهم من الإقصاء[9]، فيما دافع التعلم تراه المنظّرة نابعا من الخوف بالدرجة الأولى وليس تقليدا غريزيا، حيث ينزع الفرد إلى رصد ومراقبة وتحليل الخطاب السائد عبر وسائل الإعلام، وقياس التوجهات العامة والآراء المعبر عنها في الفضاء العام[10] بسبب تنامي فقدان الثقة في الذات وفي مدى القدرة على إصدار أحكام وتبني مواقف.

المطلب الثاني: مركزية وسائل الإعلام داخل نسق دوامة الصمت

أسست إليزابيث نويل-نيومان نظريتها انطلاقا من إيمانها القوي بالتأثيرات الحتمية لوسائل الإعلام على الرأي العام، حيث إن لهذه الوسائل القدرة على تشكيل مناخ الرأي العام، فالفرد ينهل من مصدرين لإدراك توجهات الرأي العام: الملاحظة المباشرة لمحيطه، والخطاب الذي تبثه وسائل الإعلام، بل إن قوة تأثير التلفزيون بحسب نويل-نيومان خلق نوعا من اللبس والتشويش لدى المشاهد في بناء تصور حول الرأي العام، بين ما يلاحظه شخصيا في بيئته وما يتم بثه.

تحدد نويل-نيومان خصائص وخصوصية وسائل الإعلام في ثلاث: الشيوع والتراكم والتوافق، أي إن وسائل الإعلام الجماهيرية في كل مكان، ما يعزز قابلية الانتشار السريع للرسالة الإعلامية، هذه الأخيرة يجري تضخيمها وتكرارها باستمرار، ويتزايد بذلك ميل الناس إلى مواءمة آرائهم المعبر عنها حسب الإطار الذي تحدده وسائل الإعلام، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى مراكمة معجم معين وترسيخ قضايا ذات أولوية على حساب أخرى، بل إن لوسائل الإعلام حسب نويل-نيومان وظيفة التلفظ Articulation، المقصود بها أن الإعلام ينتج ويوفر لمتابعيه الرصيد المعجمي والحمولة الفكرية التي يمكنهم تبنيها كمرجع للدفاع عن وجهة النظر المراد تسويقها[11]، وهذه الحمولة تتسم بالتوافق بين مختلف المحطات الإعلامية.

تكمن أهمية وسائل الإعلام في نظرية دوامة الصمت في مساهمتها في تشكيل حاسة شبه إحصائية لدى عموم مستهلكي الخطاب الإعلامي، تمكنهم من إدراك توجهات الرأي العام وتكوين فكرة حول بيئتهم الاجتماعية، إذ تتسم الرسائل الإعلامية التي يرجى بثها بالاتساق، وبناءً عليه يتفحص المتابع مناخ الرأي العام، ويميز بين الآراء التي تحظى بتغطية إعلامية وبقبول من لدن وسائل الإعلام وصناع القرار وبالتالي يفقد الفرد الثقة في مدى شرعية مواقفه مادامت لا تحظى بتمثيل في وسائل الإعلام، وهو ما يقوده للالتزام بالصمت[12].

إن توافق وسائل الإعلام بحسب نويل-نيومان يعد شرطا لقيام دوامة الصمت، إذ إن تشكيل رأي عام وإجماع حول قضية محددة يظل رهينا بهيمنة خطاب واحد في وسائل الإعلام الجماهيرية، وهو ما يتماشى ونظرية الأنجدة في علوم الإعلام والاتصال، إذ إن النظريتين تعضدان دور

وسائل الإعلام في التأثير على اهتمامات الأفراد، من خلال انتقاء القضايا ذات الأولوية وحجب قضايا أخرى، بل إن كتابات والتر ليبمان حول نظرية ترتيب الأولويات أسست لمفهوم "المناخ الخادع" وهو ذات المفهوم الذي تتبناه إليزابيث نويل-نيومان[13].

يحيل مفهوم "المناخ الخادع" سواء في نظرية دوامة الصمت أو الأجندة إلى التمثلات التي تبنيها وسائل الإعلام لدى عموم الجماهير من خلال فرض رقابة على تدفق المعلومات، فيميز والتر ليبمان بين الحقيقة والأخبار، فالحقيقة تحيل على الحقائق المخفية، فيما المفهوم الثاني يحيل على الوقائع والأحداث، القائمة على الدعاية والتضليل والتحريف، معتبرا بذلك أن الأخبار ليست مرآة للأوضاع الاجتماعية، بل هي تقرير لجانب من جوانبها التي فرضت نفسها[14].

بالنظر لقيام نظرية دوامة الصمت على فرضيات مؤداها أن مناخ الرأي العام يتشكل عبر دعامتين، وهما الملاحظة المباشرة للمحيط العام والتعرض للرسائل التي تبثها وسائل الإعلام، يمكن الحديث بذلك عن التقائية بين نظرية دوامة الصمت ونظرية تدفق الاتصال عبر مرحلتين، فإذا كان بول لازارسفيلد وإليهو كاتس قد أساسا للتأثير غير المباشر للخطابات الإعلامية، عبر وساطة وتدخل قادة الرأي والمؤثرين والاتصال الشخصي، فإن دوامة الصمت تفترض على ذات النحو تدخل وسطاء وفاعلين خارجيين خلال قيام الفرد بالتواصل الشخصي قصد استقاء ملاحظة مباشرة لمناخ الرأي العام المحيط به.

إن مركزية تأثير وسائل الإعلام داخل دوامة الصمت نلمس امتدادها من خلال نظرية أخرى مشابهة، ويتعلق الأمر بنظرية تأثير الشخص الثالث، هذه الأخيرة طرحها فيليبس ديفيسون، ويراد بها اعتقاد الأفراد أنهم على دراية كبرى بتأثير وسائل الإعلام دون غيرهم، وأن إدراكهم هذا يجنبهم الانقياد خلف الرسائل الإعلامية، وإن كانوا فعليا يتأثرون أيضا بالمضامين الإعلامية[15]، وهو ما يقودهم إلى دعم جهود فرض الرقابة على الرسائل الإعلامية الموجهة للجماهير، وبالتالي المساهمة في خلق دوامة الصمت.

المبحث الثاني: دوامة الصمت في ضوء تطور تكنولوجيا الإعلام والاتصال

مع تطور تكنولوجيا الإعلام والاتصال ودمقرطتها، أضحى الجزم بحتمية تأثير وسائل الإعلام محط تشكيك، إذ إن طبيعة البيئة الإعلامية المعاصرة أثرت على ديناميات دوامة الصمت، بفتح الفضاء الرقمي المجال أمام مختلف وجهات النظر، وإزاحة ستار الخوف.

بمحاولة إسقاط نظرية دوامة الصمت على البيئة الحديثة لوسائل الإعلام، يلاحظ أن أول قصور يعتري نظرية إليزابيث نويل-نيومان هو اقتصارها على دراسة تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية، وتحديدا التلفزيون، وتناسيها التطور المتسارع لوسائل الاتصال، فضلا عن تقييدها أسباب الصمت في الخوف من الإقصاء المجتمعي، دون الخوض في دوافع أخرى كالخجل، اللامبالاة أو الميل لتجنب إحراج الطرف الآخر المدافع عن الرأي النقيض[16]، وإغفالها إمكانية امتناع الأفراد عن التعبير عن آرائهم رغم توافقهم مع ما هو سائد، أو ميلهم أكثر للتعبير عن مواقفهم وإن كانت تتعارض مع المناخ العام.

خلافا لوسائل الإعلام الجماهيرية التي تنحو، بحسب نظرية نويل-نيومان، نحو تسويق رأي واحد وخطاب موحد متسق، فإن الفضاء الرقمي خلق حالة من الاستقطاب والانقسام، وبالتالي تطرح فرضيات حول تراجع تأثير دوامة الصمت وحدود انتشارها، بسبب الخوارزميات، إذ إن كل وجهات النظر تجد لها الدعم عبر هذه المنصات الرقمية، ما يعزز احتمالية تدخل عوامل أخرى في مدى إقدام الأفراد على التعبير عن آرائهم.

من جانب آخر، تدفع فرضيات مخالفة نحو الاعتقاد بأن المنصات الرقمية ترسخ حضور دوامة الصمت، بالنظر لخصوصية هذه المنصات وقدرتها على ضمان تداول ذات المحتويات والرسائل السياسية لفترات أطول، مقارنة بوسائل الإعلام التقليدية، ما قد يؤثر سلبا على قابلية الأقليات السياسية والاجتماعية للتعبير عن آرائها المخالفة لما هو متداول إعلاميا.

بالرغم من أن نظرية دوامة الصمت جرت مقاربتها في بيئات غير متصلة بشبكة الانترنيت، إلا أن مبادئها الجوهرية لا تزال محط اهتمام الباحثين، كما أن ضعف الأبحاث التجريبية حول نظرية دوامة الصمت، خاصة مع بروز الذكاء الاصطناعي، لا يلغي انخراط الفضاء الرقمي بدوره في إرساء مناخ داعم لدوامة الصمت[17].

المطلب الأول: الآليات الرقمية المحفزة لدوامة الصمت

إذا كانت إليزابيث نويل–نيومان قد حصرت نظريتها في ارتباطها بوسائل الإعلام التقليدية والاتساق التام في الرسائل الموجهة إلى الجماهير، يطرح سؤال جهوري حول الصيغة الحديثة لدوامة الصمت في البيئات الرقمية، خاصة أن هذه الأخيرة مكنت من خلق فضاء حر للنقاش والتفاعل، وساهمت في تحرير المعلومة والرأي عبر جعل الجماهير منتجة ومستهلكة في الآن ذاته للمواد الإعلامية.

لقد ساهم الفضاء الرقمي في تفكيك الاتساق الذي طالما بنته وسائل الإعلام التقليدية، خاصة في المجتمعات التي تفتقر لقيم الديمقراطية، غير أن هذا الاتساق في الخطاب بدأ يبرز في التكنولوجيا الحديثة من خلال أشكال جديدة وعبر آليات مختلفة.

- الحسابات الآلية

يمكن تعريف برامج الروبوتات أو ما يعرف بالحسابات الآلية على أنها خورزميات حاسوبية أو روبوتات برمجية، تعمل على آلي على تجميع المعطيات، وخلق ونشر المحتويات على منصات التواصل الاجتماعي والتفاعل معها، كذا إنشاء شبكة علاقات مع حسابات رقمية أخرى[18]، وذلك بفضل التطور الهائل لتقنيات التعلم الآلي ML ومعالجة اللغة الطبيعية NLP، والذي أفضى إلى بروز روبوتات افتراضية قادرة على محاكاة المحادثات البشرية.

وفي الحقل السياسي يجري التمييز عادة بين شكلين من الحسابات الآليات، الأولى ذات مشروعية بالنظر لأهدافها النبيلة في نشر المعرفة والأخبار من مصادر موثوقة قصد تنوير الرأي العام، فيما النوع الثاني يمثل الحسابات الخبيثة التي تعيد نشر ذات الرسائل والروابط المضللة والضارة دون كلل، بهدف خلق إغراق معلوماتي إعلامي قائم على الأخبار الزائفة وخطاب الكراهية.

تُستخدم الحسابات الآليات من قبل الحكومات والأحزاب خاصة في الدعاية، من أجل التأثير على مدى قدرة الأفراد على فهم توجه الرأي العام، وترجيح كفة الأغلبية من كفة الأقلية، ونتيجة ذلك، قد يتعرض مستخدمو المنصات الرقمية للتلاعب النفسي عبر دفهم لتصديق ادعاءات كاذبة أو مبالغ فيها، والاستكانة إن كانت أفكارهم تتعارض مع مضامين الرسائل التي تروج لها هذه الحسابات.

في غياب أرقام دقيقة حول نسبة الحسابات الآلية المفعلة في مختلف منصات التواصل الاجتماعي، يظل الرقم الرسمي الوحيد المعلن عنه سنة 2022 هو "20% أو أكثر" على منصة X، حسب ما كشف عنه إيلون ماسك[19]، فيما أبانت العديد من الدراسات[20] عن افتقار الأفراد للمهارات اللازمة للتمييز بين الحسابات الآلية والحسابات الحقيقية.

إن الدراسات التي أجريت على تفاعل الأفراد مع الآلة في السياق الإعلامي أثبتت منذ البداية مدى قدرة الإنسان على الانسياق بسهولة خلف هذه الحسابات الوهمية من جهة بالنظر لرغبة الإنسان في التفاعل مع الآلة، من جهة أخرى بالنظر لبرمجتها الذكية، ولعل أهم الدراسات المرجعية نظرية معادلة الإعلام التي وضعها ريفز وناس سنة 1996، والتي أبانت عن مدى قدرة الروبوتات على التأثير على المستخدمين البشر، إذ يتفاعل معها الأفراد بذات الطريقة التي يتفاعلون بها مع بعضهم البعض، دون إدراك أو وعي منهم أنهم في تفاعل مع آلة[21].

للحسابات الآلية قدرة تأثير تضاهي تلك التي تتمتع بها الحسابات الحقيقية حسب ما كشفت عنه دراسة نشرت سنة 2018، همت تحليل تفاعل مستخدمي منصة توتير حينها مع المحتويات المنشورة، حيث أبانت الدراسة عن عدم قدرة الأفراد على التمييز بين الحسابات الحقيقية

والحسابات الوهمية الآلية، فضلا عن ميلهم تلقائيا إلى إعادة تغريد المعطيات التي تفتقد للمصداقية، والتي أنتجتها في الأساس حسابات آلية[22]، مع وجود علاقة طردية بين ارتفاع عدد التغريدات الصادرة عن الحسابات الآلية وتلك التي يعيد تغريدها مستخدمو المنصة.

- الخوارزميات وفقاعة التصفية

على مدى سنوات عملت المنصات الرقمية على تطوير تجربة المستخدمين وتكييفها وفقا لخصوصية كل فرد، بناءً على اهتماماتهم، والبيانات التي يجري استخلاصها أثناء التصفح. من خلال تحليل هذه البيانيات، تعمل الخوارزميات على توفير محتوى مطابق لمجالات اهتمام المستخدم، عبر تعزيز ظهور نتائج بحث بعينها دون أخرى، من خلال سلسلة توصيات تلقائية لمحتويات تتوافق إيديولوجيا مع انتظارات المستخدم[23].

إن هذه التوصيات التلقائية، سواء تعلق الأمر بقصاصات أخبار أو محتويات ترفيهية أو رسائل سياسية، هي في حقيقة الأمر ثمرة التعلم الآلي الذي تنهجه محركات البحث كما منصات التواصل الاجتماعي للتعرف أكثر على المستخدم وتكييف المحتويات مع ما يشبع رغباته، وهذا الإشباع في حقيقة الأمر يخلق فقاعة التصفية.

على المدى البعيد، تساهم هذه الفقاعات في رسم رأي عام خاطئ وإيهام الأفراد برجاحة تصوراتهم، وتعزيز عزلتهم الفكرية دون إدراك منهم، ولهذا الوهم كلفة باهضة على المستويين الشخصي والثقافي[24]، إذ يحفز دوامة الصمت، فالأدبيات المتعلقة بدراسة نظرية إليزابيث نويل–نيومان في الفضاء الرقمي تشير لحافز الخوف من العزلة كمحرك لمراقبة الأفراد للخطابات والرسائل الأكثر تداولا والبحث عن الاعتراف والقبول من داخل أوساط تشاطرهم ذات الرؤى[25].

تكمن خطورة الخوارزميات وفقاعة التصفية فيما سمته نويل–نيومان بخلق شعور زائف بالتمكين في صفوف الأفراد، إذ إن تحكم الخوارزميات في تدفق الرسائل وتكييفها لإشباع توقعات المستخدم، تحرم الأخير من فرصة التعرف على مختلف الآراء المتضاربة وتبني صورة مشوهة عن الرأي العام، قائمة على إضفاء الطابع الشرعي لتصورات قد لا تحظى بالقبول أن التداول خارج النطاق الرقمي.

- الإدارة القبلية للمحتوى وغرف الصدى

إذا كانت فقاعات التصفية هي نتاج تدبير آلي من الخوارزميات فإن غرف الصدى تعد نتاج الإدارة القبلية للمحتوى على نحو إرادي من المستخدم، ولا يختلف تعريف غرف الصدى عن فقاعة التصفية، إذ يراد بها تفاعل الأفراد؛ ذوو نفس المرجعية الفكرية؛ فيما بينهم عبر مجموعات وصفحات ومنتديات رقمية، بمعزل عمن يخالفهم الرأي.

إن خصوصية فقاعة التصفية تنبني على التغذية المرتدة، إذ كلما تفاعل الفرد مع رسائل أو محتويات معينة، زاد احتمالية مصادفته لذات المحتويات، بناء على قدرة الخوارزميات على تحليل ومراقبة سلوكه واهتماماته، غير أن غرف الصدى أشبه لغرف مغلقة احتمالية مصادفة الفرد لخاطب مخالف لتصوره تعد ضئيلة بحكم الإشراف القبلي من قبل المستخدم على تدفق المحتوى وطبيعته[26].

تطرح عملية التدبير والإشراف القبلي على القبول بنشر محتوى أو التعليق داخل مدونة أو مجموعة مغلقة إشكاليات كبرى مرتبطة بحرية التعبير وفرض الرقابة وتكريس الرقابة الذاتية، إذ يضطر أعضاء المنتديات الرقمية إلى تجنب التعبير عن آرائهم مخافة الحظر من المجموعة. وعلى مستوى أوسع، فإن هذا الإشراف المنحاز جعل بعض المنصات الرقمية في مرمى انتقادات، خاصة حين يتعلق الأمر بخطابات سياسية أو قضايا دولية جيوسياسية خلافية.

- روبوتات الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي (AI chatbots)

لقد أحدثت روبوتات الدردشة التوليدية المدعومة بالذكاء الاصطناعي ثورة في عالم الإعلام والتواصل، تمثلت في بروز أساليب جديدة في البحث، إذ تشير نتائج بعض الدراسات الحديثة إلى تراجع مؤشرات البحث والاستعلام عبر منصة جوجل، مع تراجع ملحوظ في نسب زيارة المواقع الإلكترونية[27]، وذلك بالنظر لقدرة أدوات الذكاء الاصطناعي، مقارنة بمحركات البحث التقليدية، على معالجة طلبات المستخدمين بكفاءة أكبر، سواء تعلق الأمر بتوليد النصوص، الصور، الترجمة، البرمجة وغيرها من المهام التي تتطلب تصفح روابط ومواقع عديدة وتحميل تطبيقات متخصصة.

تكمن قوة هذه الروبوتات في نهمها من نماذج لغوية ضخمة LLMs، عبر مزيج غير منقح من المعطيات والمواد المنشورة في الفضاء الأزرق، ما يفسر قدرتها على التعامل مع أنواع مختلفة من البيانات في آن واحد، بما في ذلك البيانات المرئية والصوتية والنصية، غير أن روبوتات الدردشة هذه تطرح مخاوف كبرى حول تكريسها لظاهرة الانحياز التأكيدي (Confirmation bias) خلال تفاعلها مع طلبات وأسئلة المستخدمين[28].

يتقاطع الانحياز التأكيدي لروبوتات الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي مع خلق الشعور الزائف بالتمكين، خاصة حين يصاغ نص الرسالة الموجه لهذه الروبوتات وفق أسلوب أكثر اتساقا يقود مسار المحادثة نحو إجابة محددة، وهو ما يحول دون إدراك الفرد للحقائق، بل يجعله أحيانا يؤمن برجاحة هلوسات الذكاء الاصطناعي حين يعجز الأخير عن إيجاد أجوبة دقيقة.

المطلب الثاني: نحو صمت رقمي استراتيجي

رغم التجليات الواضحة لاستمرار دوامة الصمت في الفضاء الرقمي، إلا أن نظرية إليزابيث نويل–نيومان جعلت من الخوف عاملا مركزيا ومحددا في مدى قدرة الأفراد على الجهر بآرائهم، علما أن الفضاء الرقمي يعد متحكما فيه من قبل المستخدم لبناء شبكة علاقاته الخاصة، وانتقاء الرسائل واختيار المنتديات، وكذا إخفاء الهوية والإشراف على قبول أو رفض المحتويات، مع وجود خوارزميات مساعدة على ذلك.

إن قدرة الأفراد على التعبير صراحة على مواقفهم عبر منصات التواصل الاجتماعي رهينة بمدى قوة ارتباطهم بشبكة العلاقات التي أسسوها في الفضاء الرقمي، إذ إن بعض المنصات؛ بحكم انتشارها الواسع؛ تفرض على المستخدمين نقل شبكة علاقاتهم الخاصة (العائلة، الأصدقاء، زملاء العمل) إلى الفضاء الرقمي، كما هو الحال بالنسبة لفيسبوك، وإنستغرام، ولينكد إن.

ينضاف إلى ما سبق الثقافة الرقمية الحديثة التي جعلت من منصات التواصل الاجتماعي آلية لبناء السمعة، حيث باتت المنشورات المعروضة على حائط كل مستخدم جزءا من هويته[29]، بل إن النقر على زر الإعجاب أو المشاركة بدوره يحمل رسائل ودلالات، ما يزيد انشغال الأفراد بظلهم الرقمي (Digital Footprint)، والذي يراد به مجموع المعطيات التي خلفوها جراء استخدامهم للفضاء الرقمي.

كما تشكل التحديثات المستمرة للمنصات الرقمية تحديا أمام إخفاء هوية المستخدمين على الدوام، ما يجعل بياناتهم عرضة للاختراق أو الكشف، ولعل أبرز مثال على ذلك إفصاح منصة إكس عن التموقع الجغرافي لكافة الحسابات بشكل علني، وهو ما يفسر عدول بعض المستخدمين عن مشاركة آرائهم في منصات دون غيرها.

لكن الخوف من العزلة لا يعد الدافع الوحيد خلف تفضيل بعض مستخدمي المنصات الرقمية عدم الكشف عن مواقفهم، كما أن إخفاء الهوية لا يعني بالضرورة القدرة على التعبير المطلق عن الرأي في البيئات الرقمية، إذ يستنتج Michael Mcdevitt من خلال دراسته لمدى قابلية عينة من الشباب التعبير عن مواقفهم بشأن الإجهاض، أن ذوي الموقف الأقل شعبية يميلون أكثر لنهج صمت استراتيجي عبر المنصات الرقمية، لا يخشون الانخراط في النقاش، لكنهم يفضلون عدم الخوض كثيرا في تفاصيل مواقفهم[30].

خاتمة

لم تحل التحولات الكبرى التي شهدتها تكنولوجيا الإعلام والتواصل دون استمرار دوامة الصمت على نحو جلي، رغم بروز هذه النظرية في سياق وسائل الإعلام الجماهيرية. فالسرديات المهيمنة داخل المجموعات الرقمية المغلقة والمنتديات، فضلا انحياز الخوارزميات وغرف الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي لصالح المرجعية الفكرية للمستخدم، ما هي إلا دليل واضح على الانحياز التأكيدي، الذي يضر بإدراك الأفراد للرأي العام.

ورغم ما توفره المنصات الرقمية من مساحة للتعبير الحر، لا يمكن الحديث عن حرية بالمعنى المطلق، إذ تتجلى مخاوف العزلة والإقصاء أيضا في العالم الرقمي، بالنظر لتحول هذا الأخير لآلية لبناء السمعة، دون إغفال المخاطر المقرونة بالبصمة أو الظل الرقمي، وهو ما يفرض على المستخدمين دوامة اعتدال (Spiral of Moderation) في تداولهم بشأن القضايا ذات الطابع الخلافي.

كما تعد التربية الإعلامية أحد أهم المداخل لتجاوز الإشكاليات التي تطرحها دوامة الصمت في الفضاء الرقمي، وذلك من خلال تمكين مستخدمي المنصات الرقمية من تملك أدوات رصد وتمييز المحتوى المضلل والرسائل الموجهة أو تلك التي تكرس الانحياز التأكيدي.

إن الأصل في الفضاء الرقمي هو أن تتقابل الأفكار، وأن يزاح ستار الخوف وتتلقى مختلف وجهات النظر، رغم تباينها التام، لا أن تتورى بفعل تدخل الخوارزميات أو الإشراف القبلي على تدفق المحتوى، فحالة الانقسام والاختلاف هو جوهر التواصل.

الهوامش:

[1] Griffin, E. (2011). *A first look at communication theory*. 7th edition. McGraw-Hill Education. P.380.

[2] Hayes, A. F. (2007). Exploring the forms of Self-Censorship: on the spiral of silence and the use of opinion expression avoidance strategies. *Journal of Communication*, *57*(4), 785–802. https://doi.org/10.1111/j.1460-2466.2007.00368.x

[3] Drew, C. (January 8, 2023). Spiral of Silence Theory: Definition, Examples & Criticisms. Helpful Professor. Accessed March 27, 2025. https://helpfulprofessor.com/spiral-of-silence-theory/

[4] Drew, M. (2022). Expanding the Scope of the Spiral of Silence Theory to Increase Relevance the Digital Age. Journal of Student Research at Indiana University East, 4(1), 104–124. Accessed March 27, 2025. https://scholarworks.iu.edu/journals/index.php/jsriue/article/view/34203

[5] Noelle-Neumann, E. (1984). *The spiral of silence : Public Opinion, Our Social Skin*. The University of Chicago Press, Chicago. P.02.

[6] Davison, W.P. (1968) Public opinion: Introduction. In D.L.Sills (Ed.), International encyclopedia of the social sciences (Vol. 13, pp. 188–197). New York: Macmillan & Free Press.

[7] Abramowitz, A. I. (1987). Candidate choice before the convention: The democrats in 1984. Political Behavior, 9(1), 49–61. P.02. Accessed March 09, 2025. https://doi.org/10.1007/bf00987278

[8] Noelle-Neumann, E. (1984). P.34.

[9] Griffin, E. (2011). P.373

[10] Donsbach, W., Salmon, C. T., & Tsfati, Y. (2014). *The spiral of silence: New Perspectives on Communication and Public Opinion*.P.66.

[11] Noelle-Neumann, E. (1984). P.173.

[12] Sanders, K. R., Kaid, L. L., & Nimmo, D. D. (1985). Political Communication Yearbook. Southern Illinois University Press P.47.

[13] Gaitano, N. G., López-Escobar, E., & Algarra, M. M. (2022). Walter Lippmann's public opinion revisited. *Church Communication and Culture*, *7*(1), 264–273. Accessed July 14, 2025 https://doi.org/10.1080/23753234.2022.2042344

[14] Lippmann, W. (1997). Public opinion. Transaction Pub. P.341.

[15] Davison, W. P. (1983). The Third-Person effect in communication. Public Opinion Quarterly, 47(1), 1. P.03. Accessed May 08, 2025. https://doi.org/10.1086/268763

[16] Drew, M. (2022). Expanding the Scope of the Spiral of Silence Theory to Increase Relevance the Digital Age. Journal of Student Research at Indiana University East, 4(1), 104–124. Accessed March 27, 2025. https://scholarworks.iu.edu/journals/index.php/jsriue/article/view/34203

[17] Schulz, A., & Roessler, P. (2012). The Spiral of Silence and the Internet: Selection of online content and the perception of the Public Opinion Climate in Computer-Mediated Communication Environments. International Journal of Public Opinion Research, 24(3), 346–367. Accessed March 27, 2025. https://doi.org/10.1093/ijpor/eds022

[18] Ng, L. H. X., & Carley, K. M. (2025). A global comparison of social media bot and human characteristics. *Scientific Reports*, *15*(1), 10973. https://doi.org/10.1038/s41598-025-96372-1

[19] Ingram, M. Musk's Twitter bid, and the 'bot'

complication. https://www.cjr.org/the_media_today/musks-twitter-bid-and-the-bot-complication.php (2022). Accessed 21.12.2025

[20] Fang, W., & Nie, C. (2023). Social media use, social bot literacy, perceived threats from bots, and perceived bot control: a moderated-mediation model. *Behaviour and Information Technology*, *43*(13), 3271–3287. https://doi.org/10.1080/0144929x.2023.2276801

[21] Reeves, B., & Nass, C. (1996). *The media equation: How People Treat Computers, Television, and New Media like Real People and Places*. Center for the Study of Language and Information Publications. https://dl.acm.org/doi/10.5555/236605

[22] Shao, C., Ciampaglia, G. L., Varol, O., Yang, K., Flammini, A., Menczer, F., Shao, C., Ciampaglia, G. L., Varol, O., Yang, K., Flammini, A., & Menczer, F. (2018). The spread of low-credibility content by social bots. Nature Communications, 9(1), 4787. https://doi.org/10.1038/s41467-018-06930-7

[23] Flaxman, S., Goel, S., & Rao, J. M. (2016). Filter bubbles, echo chambers, and online news consumption. *Public Opinion Quarterly*, *80*(S1), 298–320. https://doi.org/10.1093/poq/nfw006

[24] Pariser, E. (2011). *The filter bubble: How the New Personalized Web Is Changing What We Read and How We Think*. Penguin. P.12.

[25] Neubaum, G., & Krämer, N. C. (2016). Monitoring the opinion of the crowd: Psychological mechanisms underlying public opinion perceptions on social media. *Media Psychology*, *20*(3), 502–531. https://doi.org/10.1080/15213269.2016.1211539

[26] Chandler, D., & Munday, R. (2011). *A Dictionary of Media and Communication*. Oxford University Press, USA. P.402.

[27] Kaiser, C., Kaiser, J., Schallner, R., & Schneider, S. (2025): A New Era of Online Search? A Large-Scale Study of User Behavior and Personal Preferences during Practical Search Tasks with Generative AI versus Traditional Search Engines. Proceedings of the ACM CHI conference on Human Factors in Computing Systems, Yokohama, Japan. https://doi.org/10.1145/3706599.3720123

[28] Du, Y. (2025). Confirmation bias in Generative AI chatbots: mechanisms, risks, mitigation strategies, and future research directions. *arXiv (Cornell University)*. https://doi.org/10.48550/arxiv.2504.09343

[29] Hakobyan, A. (2020). Digitalization of Communication and the Spiral of Silence Theory. *Wisdom*, *14*(1), 19–30. https://doi.org/10.24234/wisdom.v14i1.312

[30] McDevitt, M. (2003). Spiral of Moderation: Opinion Expression in Computer-Mediated Discussion. *International Journal for Quality in Health Care*, *15*(4), 454–470. https://doi.org/10.1093/ijpor/15.4.454